الفصل الثاني

الوحدة المظلومة

obeikandl.com

obeikandl.com

الميثاق الثنائي والضمان الجماعي

ثم كان الاتفاق الثنائي بين مصر وسوريا . . .

وبإمضائه اجتاحت الشعوب العربية موجة فرح طاغية أذهلت الغرب والشرق وأوقعت الرعب في قلب إسرائيل .

فقد أحس العرب لأول مرة منذ أمد طويل بالتفاؤل في مستقبل أيامهم ، وأحس العرب لأول مرة بإرادة شعوبهم تتحقق في شكل عملي عربي خالص لا تأتيه السيطرة من حلف أجنبي ولا يأتيه النفوذ الاستعماري .

ولم تلبث إنجلترا وفرنسا أن أعلنتا معارضتهما لقيام هذا الحلف فكان انتصاراً آخر للعرب وتأكيداً لمغزاه الذي طالما نادت به شعوب العرب ولم تكن تجد إلى تحقيقه سبيلاً .

ومن بين هذه الفرحة الطاغية ، نادى مناد من العرب وقال :

« مهلاً يا قوم ، إن هذا الميثاق سيقسم العرب على أنفسهم ، وإنه إذا كان ولابد من عمل اتفاقات ، فلتكن اتفاقات تجمع الدول العربية كلها حرصًا على الوحدة العربية » .

قول في ظاهره الوحدة والعاطفة الأخوية ، وفي باطنه قصة مأساة طويلة بدأها المستر إيدن في مجلس العموم البريطاني سنة ١٩٤٢ يوم أن أوعز بقيام جامعة للدول العربية فقامت .

القصة كاملة

وليعذرني إخوتي من العرب فنحن في مجال الجد ، وسأكون صريحًا بقدر ما عانت شعوبنا من آلام ، وسأكون صريحًا كما أعلنا في سياستنا العربية بعد الثورة وقلنا فيها إننا قررنا ألا ننافق أو نخادع أو نضلل .

نعم قررنا ألا ننافق أو نخادع أو نضلل فخير للشعوب العربية ألف مرة أن نقول لهم : إن حكامكم اجتمعوا واختلفوا من أن نقول لهم : إن حكامكم إجتمعوا واتفقوا وهم أبعد ما يكونون عن الاتفاق !

فما هي إذن الجامعة العربية والوحدة العربية وميثاق الضمان الجماعي العربي المسكين وأخيرًا ما هي قصة ميثاق سوريا ومصر ، على ضوء ما أسلفت من مبادىء ؟

تبدأ القصة كما قلت سابقًا بتصريح من المستر إيدن سنة ١٩٤٢ الذي أوعز فيه بقيام جامعة الدول العربية فقامت .

وكانت الدول العربية جميعًا وقت ذاك إما تحت النفوذ البريطاني ومنها مصر ، وإما تحت النفوذ الفرنسي ومنها سوريا فيما عدا المملكة العربية السعودية واليمن .

الانقسام

وكانت سياسة كل هذه الدول الخاضعة للنفوذ البريطاني والفرنسي تسير دائما في خط يلتقي مع رغبات بريطانيا وفرنسا . ولذلك كانت بريطانيا سعيدة بالجامعة وفرنسا راضية عنها ، ولا يمكن أن ينكر أنها أدت للعرب خدمات معينة ، ولكنها كانت دائمًا في مجالات ضيقة محدودة .

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية ، وهبت شعوب العرب تطالب بالحرية . وبالتخلص من الاستعمار ومن سيطرته ومن نفوذه ، واستجابت حكومات وتخاذلت حكومات .

وظهر الانقسام داخل الجامعة ، ورغم ذلك كانت الجامعة تصدر قراراتها دائمًا بالإجماع !

لقد كان الاختلاف دائمًا واضحًا ، بل إن خطورته كانت تتمثل في أنه الاختلاف في التفكير والأهداف .

ورغم ذلك كانت الجامعة تصدر قراراتها دائمًا بالإجماع !

سبب الكارثة

وهنا لابد لي أن أقف قليلاً وأقول :

أن هذا الخداع الذي مثلته الجامعة على مسرح الشعوب العربية بقراراتها الإجماعية في الظاهر واختلاف وجهات نظر دولها في الباطن كان ولا يزال موطن الداء ، والكارثة التي حلت بكيان الأمة العربية تحت مسميات بريئة هي الوحدة العربية ، والجامعة العربية ، وهي نفس المسميات التي ينادي بها المنادي اليوم لكي يشغل العرب عن فرحتهم الطاغية الشاملة بالسلاح والميثاق السوري المصري .

إنني أريد أن أذكر العرب كيف ضاعت فلسطين تحت اسم الوحدة العربية .

إنني أريد أن أذكر العرب كيف ضاعت فلسطين تحت سمع وبصر الجامعة العربية .

إنني أريد أن أذكر العرب كيف هزمت جيوشهم السبعة أمام العصابات الصهيونية .

أريد أن أذكر العرب أن اندفاعنا ـ نحن العرب ـ وراء العواطف وتحرجنا من مصارحة بعضنا لبعض وإصدارنا قرارت إجماعية لا نؤمن بها ، كل هذا قد قضى على شعب عربي بأكمله بطريقة لم تحدث ولن تحدث عبر التاريخ .

وهكذا قضت سياسة المجاملة والعواطف ودفن الرؤوس في الرمال ، أقول قضت على شعب عربي بأكمله وأورثت بقية العرب الضعف وعدم الثقة في النفس .

وأعود إلى حديثي .

صراع عجيب

ضلت الجامعة السبيل إذن بعد أن اتخذت لنفسها سياسة تقوم على خداع شعوبها بالقرارات الاجماعية والمجاملة ، والخوف من أن يقال أن هناك انقسامًا .

إلى أن كانت حرب فلسطين .

وكم توالت اجتماعات الجامعة قبل الحرب وفي أثنائها وبعدها وكم كانت قراراتها أيضًا تترى باتفاق دولها في كل شيء !

والتاريخ والحقيقة يقولان أن هذه الدول لم تتفق على شيء كانت الحقيقة أن في الجامعة قيادات متعددة ، ومصالح متعارضة ، ووجهات نظر متنافرة .

ثم بدأ صراع عجيب ، لم يكن ضد إسرائيل وحدها ، ولكنه كان صراعا ذا شعبتين :

الشعبة الأولى : صراع ضد إسرائيل .

والشعبة الثانية : صراع بين الدول الأعضاء بعضهم ضد بعض .

ومن هنا ، من الشعبة الثانية ، نفذ الاستعمار بين الدول الأعضاء المتباغضة . واستغلت الصهيونية الفرصة فاستطاعت أن تنزل بالعرب هزيمة ساحقة .

ترى هل ما أقوله اليوم جديد على العرب ؟ أن كل عربي يشهد عليه !

ثم انتهت حرب إسرائيل ، وحاولنا أن نواري هزيمتنا التراب لكي نبدأ صفحة جديدة نصحح بها الماضي وما فيه من أخطاء .

فماذا حدث ؟

لقد بدأ صراع جديد ، لم يكن هدفه في هذه المرة إسرائيل وإنما كان هدفه بعضنا البعض .

وفي قاعات الجامعة العربية بدأت المهزلة من جديد .

لابد أن نخرج على الشعوب بقرارات إجماعية !

أو بمعنى أصح . إلى الخداع من جديد ونسينا فلسطين ، وكارثة أهلينا من اللاجئين ، وحتى لو أدى الخداع إلى أن تصبح الأمة العربية كلها من اللاجئين !

obeikandl.com

المهزلة

وراحت تتتابع فصول المهزلة من جديد .

واجتمعت الدول العربية عام ١٩٥٠ وعقدت فيما بينها ميثاقًا للضمان الجماعي . وقعت عليه الدول بالإجماع كما تقضي سياسة العواطف والمجاملة ودفن الرؤوس في الرمال .

وقعوا جميعًا لا من أجل دوافع عسكرية ، ولا من أجل أمن العرب ، ولا من أجل الدفاع عن مقدسات الوطن العربي ولامن أجل الحيلولة أن تلاقي أية دولة عربية أخرى مصير الشقيقة فلسطين .

ولا من أجل خلافهم مع إسرائيل ، وإنما وقعوه ليقال : إنهم متفقون ثم وضعوه على الرف ساعة أن انتهوا من توقيعه بدلاً من تنفيذه !

أليست هذه هي الحقيقة التي يعرفها كل عربي ؟

إن العرب لم يتفقوا في جامعتهم على شيء إلا على العواطف الجذابة والأماني الرقيقة والخيال الخلاب .

وهكذا بدأت الشعوب العربية تحس الخطر ، وكنا نحس نحن مثل هذا الشعور كما يحسه كل عربي كنا نشعر أن هناك حاجزًا يحول بين الدول العربية وبين تنظيمها لدفاعها ضد إسرائيل .

وكنا نشعر أكثر من ذلك أن إسرائيل قد أمنت واطمأنت إلى أن العرب في أمورهم لاهون ، وأن العرب وقد لحقتهم الهزيمة لن يفكروا فى أنهم قد تلحقهم في المستقبل هزيمة أخرى ، فقد نسى العرب كارثة فلسطين ، ونسوا أكثر من ذلك عدوهم الأساسي الذي اغتصب فلسطين .

وأنهم مشغولون بمشاحناتهم وخلافاتهم وأحقادهم !

الثورة

وقامت الثورة المصرية .

وقلنا للعرب : إننا لن ننافق ولن نحادع ولن نضلل .

وقلنا لهم أيضًا يجب أن ننبه الأمة العربية إلى ما هي فيه من خطر داهم وقلنا :

يجب أن يوضع ميثاق الضمان الجماعي العربي موضع التنفيذ في الحال إذا أريد لنا أن نحيا أو نعيش في سلام .

وبدأنا باتصالات عدة .

وتبينا ـ ويا لسوء ما تبينا ـ بعد هذه الاتصالات أن هناك خلافًا أصيلاً خطيرا في وجهات النظر .

وجدنا من يؤمن أن العرب لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم إلا إذا اعتمدوا على دولة كبرى تقوم بواجب الحماية لهم وعليهم في حين أن إيماننا منذ البداية هو في التحرر من كل ألوان الحماية والوصاية التي كان يفرضها علينا من فرضوا إسرائيل وتبنوها ومزقوا فلسطين ومن عليها .

وإيماننا أيضًا هو أن العرب باتحادهم يكونون قوة تستطيع أن ترغم الدول الكبرى على أن تحس بقيمتهم وقوتهم وقدرتهم على الدفاع عن أنفسهم ، فتتغير الموازين ، وتصبح الثمانون تساوي ثمانين لا كما هي اليوم في موازين الغرب ، أن مليونًا من اليهود الأفاقين يساوي ثمانين مليونًا من العرب المساكين !

واجتمع العرب وتداولوا ، وتباحثوا ، ثم تداولوا وتباحثوا ، ثم انفصلوا، ثم اجتمعوا مرة أخرى لينفصلوا .

وظل ميثاق الضمان الجماعي حبرًا على ورق .

صرخة جمال

وأصبح جليًا أن صراخ جمال وهو ينبه للخطر الداهم قد ذهب في واد ، لقد صرخ جمال :

* هل ستنتظرون حتى تأخذ إسرائيل المبادأة ؟

* هل ستنتظرون حتى تقع الواقعة ؟

* هل ستنتظرون حتى تبدأ إسرائيل عملياتها للتوسع ضدنا فنعود حينئذ إلى الاجتماع لكي نتداول ونتباحث ثم نتناقش ونتفق ؟

إن هذا هو القضاء على الأمة العربية والقومية العربية .

إن الزمن لن ينتظرنا حتى نقرر ، فستكون إسرائيل قد قررت ثم حققت كل ما تريد من أهداف وأطماع .

إن الخطر الذي يجابهنا أكبر مما نتصور، وسيعيد التاريخ نفسه مرة أخرى.

ستكون هناك سبع قيادات عربية أمام قيادة يهودية واحدة وستهزم القيادة الواحدة القيادات السبع مرة أخرى .

إننا بعملنا هذا نساعد إسرائيل على أن تنفرد بنا واحدًا بعد الآخر ، وسنظل نتناقش ثم نتناقش ، ونتداول ثم نتباحث .

وأسدل الستار على مأساة التداول ثم التباحث .

التهديد

وظل ميثاق الضمان الجماعي العـربي حبرًا على ورق كما أراد له موقعوه ورأت إسرائيل وسمعت ، واندفعت تقوي نفسهـا وجيشها وتحفزت ، فالقوم في سبات الخلاف والضغينة والانقسام .

وهددت إسرائيل وتبجحت .

فقال بن جوريون : « سنجبر العرب على قبول شروطنا » .

وقال مناحم بيجن :

« إن إسـرائـيل الموعـودة تمتـد من النيل إلى الـفـرات ويجب أن نعـمل لذلك» .

وهكذا كانت نهاية الضمان الجماعي والدفاع المشترك العربي !

لم نتفق ، ولم نستطع أن نقرر .

وكان علينا نحن الذيـن نحس بالخطر المباشر من إسـرائيل أن نبحث عن حل آخر فقد داهمنا خطر جديد .

الضغط

إن الدول التي تدعي لنفسها حق النفوذ في هذه المنطقة أخذت تضغط بوسائل متعددة ، فقد منعت عنا السلاح الذي نطالب به لنحمي أنفسنا من إسرائيل .

كانت تقول لنا : إن الخطر الأساسي هو خطر هجوم شيوعي روسي ، ثم اشترطت في صراحة أنه لكي تعطينا كميات محدودة جداً من الأسلحة يجب أن تنتظم الدول العربية في حلف للدفاع تحت سيطرتها ضد الخطر الشيوعي الخارجي ، وإسرائيل في داخل المنطقة تستعد للتوسع والعدوان .

ومرة أخرى انقسم العرب على أنفسهم أكثر مما هم فيهه من انقسام .

فاستجابت دولة عربية لهذا الضغط ووقعت حلفًا مع مؤسسي إسرائيل .

وترددت دولة أخرى ، وقاومت ثالثة ، إلى آخر ما يعلمه كل الناس من الماضي القريب .

كان الغرب يعتقد أن خطته هذه هي بداية انهيار العرب لكي يعودوا إلى أحضانه الواحدة تلو الأخرى طلبًا للحماية فاقدين بذلك قوميتهم ومتنكرين لأهدافهم ومذعنين لسياسته ورغباته .

الاعتداء

ثم تحركت إسرائيل .

وفي يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ اعتدت إسرائيل على الحدود المصرية اعتداء مدبراً أقره مجلس الوزراء الإسرائيلي .

وكان هذا الاعتداء هو ناقوس الخطر الذي أفاقت عليه بقية الدول العربية بعد أن تخلفت واحدة .

لم تتخاذل هذه البقية ، ولم ترتم تحت أقدام الغرب لتطلب حمايته ، ولكنها على العكس أفاقت وتنبهت ، وبرغم ذلك استمر ميثاق الضمان الجماعي حبراً على ورق .

وبدأت الدسائس والضغط ، وأصبح واضحًا أن هدف هذه الدسائس هو أن ييأس العرب ، ولا يجدوا لهم من سبيل للدفاع عن كيانهم وحماية حدودهم سوى طريق التحالف مع دولة كبرى تتولى واجب الدفاع عنهم .

نهاية الضمان

وبدأنا نؤمن إيمانًا لا يتطرق إليه الشك أن ميثاق الضمان الجماعي العربي لن يوضع في يوم موضع التنفيذ ، وسيبقى دائمًا حبرًا على ورق .

وأصبح من المحتم على الدول العربية التي تشعر بالخطر اليهودي والطمع الصهيوني أن تجد الوسيلة الناجحة لتنسيق الدفاع بينها ، فكان أن اتفقت سوريا ومصر اتفاقًا عمليًا ينص على قيادة موحدة لجيش سوريا وجيش مصر .

وبذلك تحقق ـ لأول مرة ـ أحد الأهداف الكبرى التي طالما نادت بها شعوب العرب .

وبذلك أصبح على إسرائيل اليوم أن تفهم أنها إذا فكرت في العدوان فإن مصر وسوريا لن تتشاورا ثم تتناقشا ثم تتداولا وأخيرًا تتباحثان ، ولكنهما ستعملان .

ستعملان لا بقيادتين ، وإنما بقيادة واحدة ستجابه قيادتها الواحدة .

قيادة واحدة تعمل في شمال إسرائيل في نفس الوقت الذي تعمل فيه في جنوب إسرائيل .

قيادة واحدة كان مجرد الإعلان عنها فزعًا في إسرائيل ، وسيعلم كل من تحدثه نفسه بالعدوان كيف تكون الرهبة وكيف يكون القتال .

فإلى هؤلاء الذين يقولون : إن ميثاق سوريا ومصر قد يقسم الدول العربية على نفسها أقول :

إنكم تتنكرون لتاريخ الأمة العربية ومآسيه ، وتكفرون بالوطن العربي وما يشقيه ، وتنسون فلسطين وما دهاها وشرد أهلها وسود ضحاها .

إن الأمة العربية لن تتفرق أبدًا لأنها أمة واحدة .

وإذ لم تستطع قياداتها أن تجمع على أمر فيه خلاصه ، فخير للأمة العربية أن تجمع قيادتان فيها على هذا الأمر بدلاً من أن يتفرق الكل طرائق قددا .

لقد شعرت إسرائيل بخطر هذا الميثاق ودلالته ، فقامت تنتقم من سوريا بعمل كمين في الظلام لجنود سوريا لشجعان .

إن إسرائيل لن تستطيع أن تواجه سوريا في النهار بعد اليوم ، لأنها تعلم أن هذا يعني أن عليها أن تواجه في نفس الوقت مصر وجيش مصر وإمكانيات مصر .

وأخيرا ، أن إنجلترا عارضت هذا الميثاق لأنه سيكون آخر مسمار في نعش الوصاية التي تدعيها علينا وعارضته فرنسا لأنها تعتبره تصفية نهائية لنفوذها الذي تفترض وجوده على بعضنا .

وبعد ، أليس خيرًا لنا ولشعوبنا الطيبة أن يتحد جزء منا ليواجه الخطر بميثاق ثنائي أو بمواثيق ثنائية ، من أن ننادي بوحدة العرب ونحن نعمل في الحقيقة لإذكاء الفرقة والاحن والأحقاد ؟

إنني أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق قادة العرب إلى ما فيه خير الشعوب .

فصل ومخرج وأبطال

كنت قد ظننت في وقت من الأوقات أن هذهَ القصة قد وضحت مواقفها وانفكت عقدتها الأزلية التي لازمت سطورها بعـد أن تغير مجرى الحوادث ، وأصبح الأسلوب هو المصارحة لا المجاملة .

وهو الكشف عن موطن الداء لا التماس العـذر وخداع الشعوب بالوفاق الوهمي والعبارات المعسولة الجوفاء .

كنت أظن أن هذه القـصة قد خـرجت على شعوب العـرب بنهايتـها ، ولكن يشاء القدر إلا أن يخرج علينا فصل جديد .

ولقد لجـأ كاتبو الفـصل الجديد إلى ما لجـأ إليه الأبطال القـدامى لسبك أدوارهم فنادوا بالنداء الخالد الذي تهفو له كل النفـوس نداء الوحدة العربية ، وجمع الكلمة ، وتوحيد الصفوف .

وليس أحب إلى قلب كل عربي من أن تتحقق هذه الوحدة ، وأن تجتمع الكلمة وأن يتوحد الصف .

أقولها وقد لمستها من كل مواطن عربي في لبنان وفي سوريا وفي الأردن وفي بغداد وفي المملكة العـربية وفي مصـر ، بل وفي كل مكان يعيش تحت سمائه عربي واحد من المحيط الأطلسي إلى الخليج الفارسي .

ولكن . . . . .

إن الفصل الجديد يحوي مفاجأة مذهلة . . .

ففي نفس الوقت الذي أذاع فيه راديو عـمان بيانه متعمداً تشويـه الحقيقة

لحاجة في نفس أبطال الفصل الجديد ، نجد أن جريدة التيمس الوقورة تنبري لكي تعلق وتحلل قبل أن تسمع كلمة مصر .

وفوجئنا لأول مرة بالتيمس تبكي على الوحدة العربية تمامًا بنفس النغم الذي يردده أبطال الفصل الجديد .

أن التيمس تقول بالحرف الواحد :

« وإن لبنان ومن المحتمل سوريا أيضًا قد لا تتقبلان رفض الرئيس جمال الاجتماع بالارتياح ... » .

ثم قالت :

الرئيس الأردني سمير الرفاعي فشل في التقريب بين مصر والعراق وإنه إذا عقد هذا المؤتمر فإن واجبه الأول هو تقرير سياسة بشأن إسرائيل يكون فيها لرئيس المصري أحد الأعضاء المشتركين وليس الممثل للدور الأول .

ثم تابعت التيمس تعليقها قائلة :

إن الحركة التي قامت بها الأردن كانت مؤيدة تمامًا من جانب لبنان ، وأنها قوبلت بالترحيب في بغداد حيث تكرر الرأي بأن حلف بغداد لا يحتاج لأن يكون مانعا للوحدة العربية . . .

ثم عادت التيمس تقول :

وإن لبنان ومن المحتمل سوريا أيضًا قد لا تتقبلان رفض الرئيس جمال الاجتماع بالارتياح وأنهما قد تفكران في أن الرئيس جمال عبد الناصر ليس هو البطل العربي في كل الأمور .

وإنه إذا كانت هناك تسوية مع إسرائيل فإنهما تفضلان أن تكون لهما يد فيها أو أنهما لا تريان أن حلف بغداد هو حجر العثرة الذي كشف عنه

الرئيس المصري .

إن هاتين الدولتين « أي سوريا ولبنان » ستظلان تتساءلان ثم قالت التيمس في النهاية :

إلى أي مدى ستتأثر مصالح الدول العربية بوجهة النظر المصرية ؟

انتهى كلام التيمس .

وهكذا بدأ الفصل الجديد يكشف عن شخصية كاتبيه ومصممييه ومخرجيه . . . .

إن المادة في هذا الفصل ليست جديدة .

نحن نعرفها والعرب يعرفونها أيضًا ويعرفون مصدرها على سبيل التأكيد .

فهو نفس المخرج الذي سعى إلى رؤساء الحكومات العربية حينما وجه إليهم الرئيس جمال الدعوة للاجتماع في القاهرة عقب الإعلان عن الحلف التركي العراقي سنة ١٩٥٥ ، وقال المخرج لرؤساء هذه الحكومات :

كيف تقبلون الدعوة وتتوجهون إلى القاهرة ، إنكم إن فعلتم هذا فإنكم تكونون كالعساكر تصدر إليكم الأوامر فتقبلونها .

« إن جمال عبد الناصر يفعل معكم كما كان يفعل هتلر مع رؤساء الحكومات الأوروبية يوم أن كان يأمر فيطاع وكما فعل هتلر على وجه التحديد مع رئيس وزراء بلغاريا ، هل تقبلون على كرامتكم أن تكونوا كرئيس حكومة بلغاريا في عهد هتلر ؟ إن كرامتكم تأبى ولا شك » .

ولما لم يجد هذا اللون من الدس والوقيعة لجأ المخرج إلى الوعد بالمساعدات الاقتصادية والفنية والعسكرية .

أظنه وضح الآن من المخرج ؟

من هو المخرج الذي يملك المساعدات الاقتصادية والفنية والعسكرية يوزعها على عباد الله الذين يسيرون في ركابه .

كان المخرج يتكلم دائمًا على لسان عميله نوري السعيد ومساعديه من العملاء الذين أرسلهم إلى كل مكان .

ومع ذلك فقد عقد الاجتماع ، وكان فشله أكبر نصر للقضية العربية ، إذ انتقل بها من طور النفاق والمجاملات إلى مرحلة الصراحة والعلاج .

وكان النصر الحقيقي هو تحطيم القناع المزيف الذي حجب الحقائق عن رجل الشارع العربي ، وظهر لأول مرة وعي عربي حقيقي جعل من القضية العربية قضية كل عربي بعد أن كانت قضية نفر من الحكام الذين يتلقون التوجيه من خارج المنطقة العربية بل ومن أعداء العرب لينفذوها مشيئة لا ترد كما حدث في كارثة فلسطين ، وأعود إلى حديثي أن النغمة لم تتغير .

ففي سنة ١٩٥٥ قالوا لحكام العرب أن جمال عبد الناصر يأمركم ويسفه أحلامكم وأنتم الشيوخ والرجال الذين يجب أن يستمع جمال لنصحكم وخبرتكم . . .

واليوم في سنة ١٩٥٦ تخرج التيمس مؤيدة أبطال الفصل الجديد بنفس النغمة .

إن التيمس تتحدث عن جمال لكي تساعد الأبطال الجدد ولكن بلسان المخرج الأصلي ، فهي تصور جمال بنفس الصورة التي يريد المخرج أن يثير بها النفوس فيقول : « أنه يرى نفسه الزعيم الذي لا منازع له في العالم العربي ، وأن لبنان وربما سوريا قد لا تتقبلان هذا الوضع ، إلى آخر ما

أوردته على لسان التيمس في هذا المقال .

وهنا أريد أن أقف قليلاً ، ليس لأن مثل هذه الدعاية الرخيصة تستحق أن أقف أو أن أناقشها ، وإنما أريد أن أقف لكي أعود بذاكرتي إلى الوراء يوم أن زرت بغداد وقابلت نوري السعيد في منزله مقابلة دامت زهاء الساعتين ، تحدثت في أولها عن مهمتي الأساسية ، وهي المؤتمر الإسلامي ، حديثًا لم يستغرق أكثر من ربع ساعة ثم أنفقنا الوقت الباقي في حديث عن السياسة العربية .

وأراني مضطرًا أن أورد ما جرى في هذا الحديث لكي أوضح للأبطال الجدد .

١ ـ رأى نوري السعيد في الأردن وهو أرض أبطال الفصل الجديد .

٢ ـ أن الخلاف بين مصر ونوري السعيد ليس خلافًا شخصيًا كما صوره لهم نوري السعيد بتوجيه من المخرج الأصلي كما هو الحال دائمًا .

٣ ـ ماذا طلب مني نوري السعيد أن أبلغه لجمال .

ولا يهمني في ذلك أن ينكر نوري السعيد ، فقد سجلت عقب المقابلة في مفكرتي كل ما دار ، وأكثر من ذلك ، فإن أكثر من واحد من رجالات العراق سمع مني كل هذا الذي سأرويه عقب مقابلتي لنوري السعيد في بغداد.

وأظن أن هذا الحديث الذي أرويه في الصفحات التالية ليس بخافٍ اليوم في العراق .

سمعت في بغداد

تذكر يا أخي ما كتبته عقب عودتي من رحلتي في بلادي العربية عن الأردن ، وقد أعلن إرادته على تلك الصورة البطولية الرائعة في أول مقال لي صدر يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥٥ وقلت فيه بالحرف الواحد

شهدت أحداث الأردن .

نعم ، شهدت أحداث الأردن عشت فيها من قبل أن تقع ومن قبل أن أزور الأردن تلك الزيارة الخاطفة .

شهدت أحداث الأردن وعشت فيها يوم أن وطئت قدماي أرض لبنان الشقيق .

ومن بعد أن عشت يومين في سورية الحبيبة .

ويوم أن وصلت إلى عمان حاضرة الأردن المكافح .

وحين زرت الظهران عاصمة الزيت على الخليج العربي وجلست أستمع إلى شيوخ القبائل اللاجئين من منطقة البوريمي اكتملت لدي خيوط أخطر مؤامرة شهدها تاريخ هذه المنطقة من العالم .

إن المسألة ليست انضمام الأردن إلى حلف بغداد الإنجليزي كما أنها ليست محاولة التأثير على لبنان لدخول هذا الحلف الشقي .

وإنما هي حرب يائسة تشنها بريطانيا وتعد لها منذ أمد طويل في ميدان يمتد من حدود تركيا الجنوبية شمالاً ، إلى شواطئ المحميات على بحر العرب جنوبا .

وهدف هذه الحرب هو القضاء على الوعي العربي بعزل شعوب الأمة العربية بعضها عن بعض كخطوة أولى ثم إرغامها على الدخول تحت النفوذ والاستعمار البريطاني بعد أن تصبح كل مقدراتها وأرزاقها وأمنها وسلامتها تحت رحمة إنجلترا وجنود إنجلترا ونفوذ إنجلترا .

وتحدثت في ذلك المقال عن الدعاية البريطانية الخبيثة وكيف أنها كادت تقنع الرأي العام اللبناني أن هناك انتقامًا لابد سيقع على سوريا من أجل السياسة الاستقلالية التي انتهجها ،وكيف أن الناس في لبنان صدقوا لدرجة أن أصبحوا مشفقين مما سيقع وكأنه حقيقة واقعة أو واقع لا مفر منه ، وكيف أن سياسيًا لبنانيًا كبيرًا كشف لي عن مخاوفه هذه في قالب اقتراح يتلخص في ضم سورية إلى العراق للأسباب الأربعة الآتية :

١ ـ التخلص من أطماع تركيا في سورية والعراق .

٢ ـ مواجهة الخطر الإسرائيلي بدولة كبرى تعدادها حوالى العشرة ملايين.

٣ ـ التخلص من نوري السعيد !

٤ ـ « وهو الأهم » الراحة نهائيًا من خوف انتقام إنجلترا من سورية .

وذكرت في مقالي يومذاك ما قاله ذلك السياسي ردًا على سؤال لي من أنه يرى أن لا مانع لديه من أن يمتد النفوذ البريطاني من العراق إلى سوريا حتى تنتهى مشكلة إسرائيل !

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أريد أن أبصرك أيها الأخ العربي أيضًا بظروف زيارتي لبغداد .

فيوم أن وصلت إلى بغداد يوم ١٩ ديسمبر ١٩٥٥ كنت قد غادرت عمان عاصمة الأردن المكافح ، قبل ذلك بخمسة أيام .

وكنت قد أمضيت زيارتي أثناء وجود الجنرال تمبلر في عمان الذي كان قد سبقني إليها بأكثر من خمسة أيام ولم يسافر إلا عقب أن سافرت منها بيومين .

ويوم أن وصلت بغداد لم يكن الأردن قد هب هبته المشهورة بعد ، وإنما كانت وزارة المفتي قد استقالت وهزاع المجالي يجري استشاراته لتأليف وزارة جديدة ، من أجل ذلك كان يداعب خيال نوري السعيد وأنا جالس إليه أمل كبير في أن تنضم الأردن إلى حلفه ثم يأتي دور لبنان كما كان يتعشم وبذلك تتحكم الحلقة حول سوريا وتعود الأمة العربية ثانيًا إلى حظيرة إنجلترا بفضل جهود رجلها نوري السعيد .

إن الأردن دولة مصطنعة ، دولة لا دخل لها ولا إيراد ، ومن مصلحتها أن تدخل الحلف لتأخذ معونة .

هذا هو رأي نوري السعيد الصريح في الأردن .

فما هو رأي أبطال الفصل الجديد وهم من هذا الأردن الذي يصفه نوري السعيد بأنه مصطنع ؟

وما جدوى هذا الفصل البطولي في التوفيق بين مصر ونوري السعيد وهذا هو رأي نوري السعيد في وطن الأبطال .

الحقيقة أنني أريد أن أقولها كلمة مخلصة لأبطال الفصل الجديد .

إن مصر قد حددت سياستها واضحة صريحة ونصت عليها في دستورها، والخاص والعام في الأمة العربية يستطيع أن يعرفها ويشرحها ،

سياسة استقلالية تؤمن بالوطن العربي ككل لا يتجزأ ، وتحارب الاستعمار وأعوان الاستعمار وأساليب الاستعمار .

ونوري السعيد هو الآخر حدد سياسته واضحة صريحة فربط مصيره بالغرب حلفًا ومعاهدة وتاريخًا ومصالح .

فأين أنتم يا حضرات الأبطال الجدد من هذين الخطين ؟

وما هي حقيقة الدور الجديد الذي ترغبون تمثيله ؟

أن ألفاظ الوحدة العربية وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف ألفاظ جميلة براقة مطاطة فقولوا لي بربكم كيف ستجمعون بين الخطين ، خط مصر الواضح وخط نوري السعيد الواضح أيضًا وهما ضدان لا يلتقيان؟

الأجدر بالفصل الجديد لكي تكون فيه جدوى أو بطولة أن تخرجوا لشعوبكم بقرار واضح صريح كما خرج جمال في مصر وكما يفرض نوري السعيد في العراق .وساعتها ستقول شعوبكم كلمتها ، وستكونون على أية حال جديرين بالاحترام لأنكم صارحتم شعوبكم وناديتم بما تؤمن به نفوسكم.

أما أن يخرج من آن لآخر بطل يريد أن يمثل فصلاً جديداً تحت اسم الوحدة وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف طلبًا للتصفيق وتعمية الشعوب عن حقيقة المأساة فهذا ما لم يعد أحد يقبله أو يأبه له .

إن هذه البطولة تضليل طالما ساق هذه الأمة العربية إلى الهلاك ، إن سياسة مصر لا تختلف في شيء على الإطلاق مع ما يريده شعب العراق ، وما يريده شعب الأردن وما يريده لبنان وجميع شعوب العرب .

ولكنها تختلف مائة في المائة مع ما يريده نوري السعيد .

ونحن نؤمن هنا أن نوري السعيد ليس العراق ، فالعراق العربي نعرفه عبر التاريخ في ثوراته وإحداها يذكرها نوري السعيد جيداً وتذكرونها معه أيها الأبطال الجدد ، وتذكرون أنه يرفض السيطرة البريطانية ويرفض الاستعمار البريطاني .

وتذكرون أيضاً يا حضرات الأبطال أن شعب العراق ثار في القريب لمجرد تعديل معاهدة فما بالكم بحلف أجنبي تدخل فيه إنجلترا عدوة هذا الشعب وصانعة إسرائيل والجلاد الذي قتل أبناء هذا الشعب .

اذكروا هذا جيداً ووفروا على أنفسكم الدور البطولي الجديد فإن الشعوب قد يقظت ، وهيا بنا نتصارح ونصارح شعوبنا بدلاً من الدجل وذلك التضليل .

والآن ، أنتقل بك أيها الأخ العربي إلى الجزء الثاني من حديث نوري السعيد لأذكر لك رأيه في السياسة العربية صريحاً واضحاً ، وكيف يريد حل مشكلة إسرائيل بنص حديثه .

●●●●●